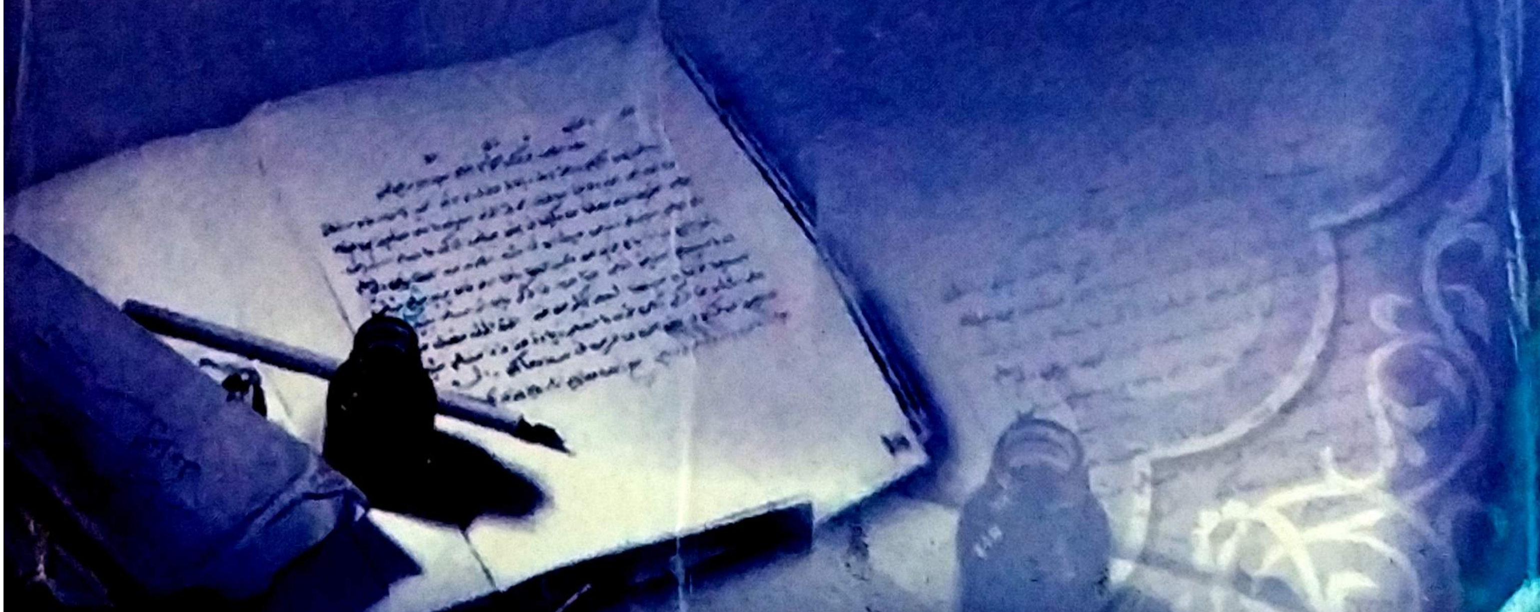
سلسلة الإعتصام بالكتاب والسنة -١-

ارشاد الحيارى و التائهين إلى معرفة كمال الدين

للشيخ أبي عبد الباري
العيد بن سعد شريفي



إرشاد الحيارى والتائهين

إلى

معرفة كمال الدّين

للشيخ

أبي عبد الباري العيد شريفي

حفظه الله

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

٢٠٠٦/١٤٢٧

الناشر

تسجيلات الغرباء الأثرية بالجزائر.

١٨ شارع أحمد حسينة – بجوار مسجد السنة – باب الوادي

هاتف/فاكس: ٠٢١ ٩٦ ٦٢ ٠٩

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادِي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

أما بعد: فهذه رسالة لطيفة ومقالة منيفة لشيخنا ووالدنا أبي عبد الباري العيد بن سعد شريفي سلّمه الله هي في الأصل عبارة عن سلسلة من الدروس والمحاضرات كان قد ألقاها الشيخ على طلبته بالجامعة، فعملت على جمعها ولَمِّ شتاتها والترتيب بين فوائدها وفرائدها والتنسيق بين جملها وعباراتها،ثمّ قمت بقراءتها وعرضها عليه أكثر من مرّة فأبدى فيها ملحوظات وتنبيهات وزاد فيها إضافات وإشارات فجاءت على الصّورة التي ترونها ، وبعدها أذن في طبعها ونشرها ، فجزاه الله خير الجزاء .

وهي تعالج في مضمونها قضية خطيرة ومسألة كبيرة، كثر بسبب الجهل بها الإبتداع في الدين، ونجم عن جراء الغفلة عنها ونسيانها الإحداثُ في شرع ربّ العلمين، حتى صارت

البدع أقساما وألوانا، وتنوعت في ذلـــك صـــنوفا وفنونـــا، فشملت جميع مباني الشريعة الغراء في الاعتقادات والعبـــادات والأخلاق والسلوك والمعاملات، فنتجت على إثر ذلك بـــدع شنيعة لا تحصى ومحدثات فظيعة لا تعد ولا تستقصى شوهت جمال هذا الإسلام ودنست بهاء شريعة خير الأنام محمد عليـــه أفضل الصلاة والسلام .

هذه المسألة المهمة هي : **كمال هذه الملة وعدم نقصها بحال من الأحوال**، وغناها بحيث لا تحتاج إلى غيرها من أقوال وآراء وأفكار الرجال. ولقد بين الشيخ – حفظه المولى – هذه المسألة التي عمت بها البلوى، بإشارات بديعـــة وتوجيهـــات رفيعة معتمدا في ذلك على الآيات البينات والأحاديث النبوية الشريفات ومستأنسا بعبارات أهل العلم والفضـــل الـــنيرات لتكون بذلك نبراسا ومنارا يستضيء بها الســـائرون إلى ذي الكمال والجلال، وشهابا ثاقبا في نحور أهل البدع والضلال.

والله أسأل وبأسمائه وصفاته أتوسل أن يجعل هذا العمل

لوجهه خالصا وعن النيران مخلصا، كما أسأله جل وعــلا أن ينفع بهذه الرسالة المتواضعة عموم المسلمين وأن يجعلها لشيخنا في ميزان حسناته يوم القيامة يوم لا ينفع مال ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلب سليم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾ [الأحزاب: ٧٠- ٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله وأحسن الهـــدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

وبعد:

فإن الله عز وجل أرسل رسوله بالهدى ودين الحق فبلّغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين، وترك أمته على محجة بيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، فما مات رسول الله ﷺ إلا وقد بين للأمة أمر دينها، وما توفي عليه الصلاة والسلام إلا بعد أ ن أكمل الله له دينه إكمالا « غير محتاج إلى إكمال لظهوره عن الأديان كلها وغلبته لها ولكمال أحكامه التي يحتاج المسلم إليها من الحلال والحرام والمشتبه، والفرائض والسنن، والحدود والأحكام، وما تضمّنه الكتاب والسنّة من ذلك »[١] لقوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي

---

(١) "فتح البيان في مقاصد القرءان" صديق حسن خان القنوجي (٣/٣٠٩).

﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ [المائدة: ٣]. «فأخبر سبحانه أنه أكمل لهذه الأمة دينها والأديان السابقة كل واحد مكمل بالنسبة إلى الرسول الذي أرسل به والقوم الذين أرسل إليهم إكمالا يناسبهم ويليق بظروفهم وأحوالهم. أما بالنسبة لهذه الأمة فقد أكمل لها الدين في جميع المعاني، وجعله دينا صالحا لجميع ظروفهم وأحوالهم، وغناهم وفقرهم وحربهم وسلمهم وشدتهم ورخائهم، وفي جميع أصقاع الدنيا، وفي جميع الزمان إلى يوم القيامة»(١).

فكمال الدين من أعظم النعم التي مَنَّ الله بها على هذه الأمة ومن أكبر المنن التي منحها الله عَزَّ وَجَلَّ إيّاها، وهي من خصائص هذه الأمة المباركة. قال ابن كثير رحمه الله عند تفسيره للآية السابقة:

---

(١) "الشريعة الإسلامية محاسنها و ضرورة البشر إليها" العلامة ابن باز ضمن كتاب [المحاضرات الثمينة في ما يجب أن يعرفه المسلم عن دينه] ص٣٣٦.

«هذه أكبر نعم الله تعالى على هذه الأمة حيث أكمل تعالى لهم دينهم فلا يحتاجون إلى دين ولا إلى نبي غيره صلوات الله وسلامه عليه ولهذا جعله الله خاتم الأنبياء وبعثه إلى الإنس والجن فلا حلال إلا ما أحله ولا حرام إلا ما حرمه ولا دين إلا ما شرعه، وكل شيء أخبر به فهو حق وصدق لا كذب فيه ولا خلف كما قال تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام:١١٥] ».(١)

إذا تبين هذا فلم يبق لأحد من الناس كائنا من كان أن يزيد في دين الله ما ليس منه أو ينقص منه ما هو فيه، ولهذا قال حبر هذه الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [المائدة: ٣] الآية: « أخبر الله نبيه والمؤمنين أنه أكمل لهم الإيمان فلا يحتاجون إلى زيادة أبدا وقد أتمه الله فلا ينقصه أبدا وقد رضيه الله فلا يسخطه

---

(١) "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (١٦/٣).

أبدا ».[١]

وعليه؛ فما من شيء تحتاجه الأمة سواء كان في باب الاعتقاد والعبادات أو في باب السياسة والمعاملات أو في باب السلوك والأخلاق إلا وقد بينه الله تبارك وتعالى في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ كما قال تعالى ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [النساء:٥٩]، «فلم يبح تعالى الردّ عند التنازع إلى أحد دون القرءان والسنة وحرم بذلك الردّ عند التنازع إلى قول قائل لأنه غير القرءان والسنة»،[٢] فدل ذلك على أنه لو كان الحق غير موجود فيهما لما ردّنا الله عز وجل إليهما عند الاختلاف، فما من شيء نتنازع فيه إلا وله حكمه في الكتاب والسنة لقوله جل وعلا ﴿ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ

---

(١) رواه ابن جرير في" تفسيره" (٥١٨/٩).

(٢) "حجة الله البالغة" ولي الله الدّهلوي (١٥٤/١).

مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ﴾ [الشورى:١٠]،«فالقرءان الكريم كلّية الشريعة، والمجموع فيه أمور كليات لأن الشريعة تمّت بتمام نزوله، فإذا نظرنا إلى رجوع الشريعة إلى كلّياتها وجدناها قد تضمّنها القرآن على الكمال...»[١]، قال الإمام الشافعي رحمه الله وهو يقرر هذا المعنى:«فليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلا وفي كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها»[٢].

ويتأكد هذا الأمر من السنة بحديث العرباض بن سارية رضي الله عنه حيث قال:«وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون فقلنا: يا رسول الله كأنها موعظة مودّع فأوصنا قال: أوصيكم بتقوى الله ﷻ والسمع والطاعة وإن تأمّر عليكم عبد حبشيّ فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء

(١) "محاسن التأويل" للقاسمي (٣٥٥/٤).

(٢) "الرسالة" للشافعي (٢٠).

الراشدين المهديّين من بعدي عضّوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة»،(١) فقوله عليه الصلاة والسلام «فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا» يشير إلى أن الاختلاف سنة كونية ماضية كما قال تعالى ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود:١١٨-١١٩]، لكن كيف نتعامل مع هذا الاختلاف؟ أرشدنا النبي ﷺ إلى علاج هذا الخلاف بقوله : «فعليكم بسنتي...»،وهذا دليل كاف وشاف على أن الدّين كامل وتام وإلا لما كان في قوله ﷺ فائدة، وهذا ممّا يدفع بطالب العلم ويحفزه إلى صرف همته إلى التفقه في الكتاب والسنة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :«إن رسول الله ﷺ بيّن جميع الدين أصوله وفروعه،

---

(١) رواه أحمد في "المسند"برقم: (١٦٥١٩)، والترمذي برقم: (٢٦٠٠)، وأبو داود برقم: (٣٩٩١)، وابن ماجه برقم: (٤٣١)، والدارمي برقم: (٩٥)، والحاكم في "المستدرك" (١/٩٥- ٩٦)، وصححه المحدث العلامة الألباني في"صحيح الجامع الصغير" (١/٣٤٦) وفي "الإرواء" برقم:(٢٤٥٥).

باطنه وظاهره، علمه وعمله، **فإن هذا أصل أصول العلم والإيمان**، وكل من كان أعظم اعتصاما بهذا الأصل كان أولى بالحق علما وعملا». [1]

بناء على ما تقدّم فإن قال طالب علم أو أي مسلم أنا في حيرة من أمري واختلطت عليّ الأمور، دلّ ذلك على بعده عن الكتاب والسنة لأن رفع هذه الحيرة موجود فيهما قال تعالى: **﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾**، ومن أراد الخروج من حيرته بغير الكتاب والسنة وهدي السلف فسيظلّ في شقاق، قال تعالى **﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾** [النساء: ١١٥].

ثم اعلم يا طالب العلم أن الله ﷻ متصف بجميع صفات الكمال والجلال فما أنزله إلينا هو الكمال، وإذا كان تبارك

(١) "مجموع الفتاوى" لابن تيمية (١٩/١٥٥).

وتعالى هو الغني عما سواه المفتقر إليه كل ما عداه فما أنزله إلينا من الوحيين قد أغنانا بهما عن غيرهما «مما شرعه لنا من الحنيفيّة السّمحة وما يسره من الدين على لسان رسوله ﷺ وسهّله للأمة، عن الدخول في الآصار والأغلال وعن ارتكاب طرق المكر والخداع والاحتيال كما أغنانا عن كل باطل محرم وباطل وضارّ بما هو أنفع لنا منه من الحق والمباح النافع، فأغنانا بأعياد الإسلام عن أعياد الكفّار والمشركين من أهل الكتاب والمجوس والصابئين وعبدة الأصنام، وأغنانا بوجوه التجارات والمكاسب الحلال عن الربا والميسر والقمار، وأغنانا بنكاح ما طاب لنا من النساء مثنى وثلاث ورباع والتسرّي بما شئنا من الإماء عن الزنا والفواحش، وأغنانا بأنواع الأشربة اللذيذة النافعة للقلب والبدن عن الأشربة الخبيثة المسكرة المذهبة للعقل والدين، وأغنانا بأنواع الملابس الفاخرة من الكتّان والقطن والصوف عن الملابس المحرمة من الحرير والذهب، وأغنانا عن سماع الأبيات وقرءان الشيطان بسماع الآيات وكلام الرحمن، وأغنانا عن الاستقسام بالأزلام طلبا لما

هو خير وأنفع لنا باستخارته التي هي توحيد وتفويض واستعانة وتوكل، وأغنانا عن طلب التنافس في الدنيا وعاجلها بما أحبّه لنا وندبنا إليه من التنافس في الآخرة وما أعدّه لنا فيها وأباح الحسد في ذلك وأغنانا به عن الحسد على الدنيا وشهواتها، وأغنانا بالفرح لفضله ورحمته وهما القرءان والإيمان عن الفرح بما يجمعه أهل الدنيا من المتاع والعقار والأثمان فقال تعالى ﴿ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ ﴾ [يونس:٥٨]، وأغنانا بالتكبّر على أعداء الله تعالى وإظهار الفخر والخيلاء لهم عن التكبّر عن أولياء الله تعالى والفخر والخيلاء عليهم فقال ﷺ لمن رآه يتبختر بين الصفين "إنها لمشية يبغضها الله إلا في هذا الموطن"(١)، وأغنانا بالفروسية الإيمانية والشجاعة الإسلامية التي تأثيرها في الغضب على أعدائه

---

(١) رواه الطبراني في "المعجم الكبير" برقم:(٦٥٠٨)،وعزاه إليه الحافظ الهيثمي في"مجمع الزوائد "(١٠٩/٦) وقال: وفيه من لم أعرفه، وابن إسحاق في "السيرة"(١٢/٣) وعنه الحافظ ابن كثير في"السيرة"(٣١/٣).

ونصرة دينه على الفروسية الشيطانية التي يبعث عليها الهوى وحمية الجاهلية، وأغنانا بالخلوة الشرعية حال الاعتكاف عن الخلوة البدعية التي يُترك لها الحج والجهاد والجمعة والجماعة، وكذلك أغنانا بالطرق الشرعية عن طريق أهل المكر والاحتيال فلا تشتد حالة الأمة في شيء إلا وفيما جاء به رسول الله ﷺ ما يقتضي إباحته وتوسعته بحيث لا يُحوجهم فيه إلى مكر واحتيال ولا يلزمه الآصار والأغلال فلا هذا في دينه ولا هذا، كما أغنانا بالبراهين والآيات التي أرشد إليها القرءان عن الطّرق المتكلّفة المتعسفة المعقدة التي باطلها أضعاف حقها من الطرق الكلامية التي الصحيح منها "كلحم جمل غثّ على رأس جبل وعر لا سهل فيُرتقى ولا سمين فينتقل"[1] »[2].

ويؤكد المولى عز وجل كمال الدين فيقول ﴿ مَّا فَرَّطْنَا

---

(١) جزء من حديث أم زرع، الذي رواه البخاري برقم:(٤٧٩٠)، ومسلم برقم: (٤٤٨١).

(٢) "إغاثة اللهفان" لابن القيم (٢/٧٤٩- ٧٥١) ط:الشيخ علي الحلبي.

فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام:٣٨]، «أي ما تركنا في القرءان شيئا من الأشياء المهمة التي من جملتها بيان أنه تعالى مراع لمصالح جميع مخلوقاته على ما ينبغي»[1]، فكل شيء تحتاجه الأمة فهو في كتاب الله ﷻ لأنه فيه بيان لكل شيء، قال الإمام الشاطبي رحمه الله :«فإذا نظرنا إلى رجوع الشريعة إلى كلياتها المعنوية وجدناها قد تضمنها القرآن على الكمال وهي الضروريات والحاجيات والتحسينيات ومُكمِّل كل واحد منها وهذا ظاهر أيضا، فالخارج من الأدلة عن الكتاب والسنة والإجماع والقياس وجميع ذلك إنما نشأ عن القرءان. وقد عدّ الناسُ قوله تعالى ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء:١٠٥] متضمنا للقياس وقوله ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧] متضمنا للسنة وقوله ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء:١١٥] متضمنا للإجماع وهذا أهم ما

(١) "تفسير أبي السعود" (١٣١/٢).

يكون»[١]، ولهذا لما ظهرت الطوائف المبتدعة في زمن الصحابة ردوا عليهم بدعهم ومقالاتهم المحدثة بالكتاب والسنة كما في قصة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه « لما دخل مسجد الكوفة فوجد حلقا من الناس ينتظرون الصلاة في كل حلقة رجل وفي أيديهم حصىً فيقول كبِّروا مائة فيكبرون مائة،هلّلوا مائة فيهللون مائة ويقول سبحوا مائة فيسبحون مائة،فأتى حلقة من تلك الحلق فوقف عليهم فقال: ما هذا الذي أراكم تصنعون؟ قالوا: يا أبا عبد الرحمن حصىً نعد به التهليل والتكبير والتسبيح قال: فعدوا سيئاتكم فأنا ضامن أن لا يضيع من حسناتكم شيء، ويْحَكُم يا أمة محمد ما أسرع هلكتكم! هؤلاء صحابة نبيكم ﷺ متوافرون وهذه ثيابه لم تَبْلَ وءانيته لم تكسر والذي نفسي بيده إنكم لعلى ملة هي أهدى من ملة محمد أو مُفتتحوا باب ضلالة، قالوا والله يا أبا عبد الرحمن ما أردنا إلا الخير، قال: وكم من مريد للخير لن

---

(١) "الموافقات" للشاطبي (١٨٢/٤).

يصيبه، إن رسول الله ﷺ حدّثنا أن قوما يقرؤون القرءان لا يجاوز تراقيهم، وأيم الله ما أدري لعلّ أكثرهم منكم، ثم تولى عنهم. فقال عمرو بن سلمة: رأينا عامة أولئك الحلق يُطاعِنونَنا يوم النّهروان مع الخوارج»[١]. فكل من أراد أن يعالج مشاكل الدعوة بالخبرة والتجربة كما فعل سعيد حوى في كتابه "هذه تجربتي" فقد أخطأ لأن قضايا الدين تُحل بالكتاب والسنة كما قال تعالى ﴿ **قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ** ﴾ [يوسف:١٠٨]، أي:على علم ولم يقل على خبرة وتجربة، ولهذا فإن النّاظر إلى واقع الأمة الإسلامية يرى أن الشباب المسلم يتخبط في الحيرة بسبب اتخاذه حقلا للتجارب الفكرية والآراء البشرية تماما كما يفعله الأطبّاء والباحثون حينما يجرّبون أعمالهم ونظريّاتهم على الفئران، فكل يُدلي برأيه وتختلف الأنظار والأفكار، والخاسر الأكبر في هذا كله هو الشباب المسلم فلا منجى ولا ملجأ لهم إلا بالتمسك

---

(١) أخرجه الدّارمي برقم:(٢٠٦).

بالكتاب والسنة، لأن فيهما الكمال المتضمن للدواء الشافي الكافي الذي يكشف الغطاء عن حيرتهم ويجلي لهم الأمور الغامضة في أذهانهم قال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء:٨٢]، وفي قول عمرو بن سلمة السابق: « رأينا عامة أولئك الحلق يطاعنونا يوم النهروان » إشارة لطيفة؛ وهي أن البدع يجر بعضها بعضا حتى تصل بصاحبها إلى الهلاك والردى عياذا بالله تعالى، فاعتبروا يا أولي الأبصار!!

ورأى النبي ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه وفي يده صحيفة من التوراة فقال له: «أفي شك أنت يا ابن الخطاب؟ ألم آت بها بيضاء نقية ؟ لو كان أخي موسى حيًا ما وسعه إلا اتباعي»[1]، لأن ما جاء به النبي ﷺ مهيمن على جميع ما

---

(١) أخرجه أحمد في"مسنده" برقم(١٤٦٢٣)، والدارمي في برقم: (٤٦٣)، وحسّنه العلامة الألباني بمجموع طرقه كما في "الإرواء" برقم:(١٥٨٩)، وفي تخريج "السنة" لابن أبي عاصم برقم: (٥٠) من حديث جابر بن عبد الله.

جاءت به الرسل السابقون كما قال تعالى ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة:٤٨]. ويقول النبي ﷺ: «مثلي في النبيّين كمثل رجل بنى دارا فأحسنها وأكملها وترك فيها موضع لبنة لم يضعها، فجعل النّاس يطوفون بالبنيان ويعجبون منه ويقولون لو تمّ موضع هذه اللبنة، فأنا في النبيّين موضع تلك اللبنة»[1].

ولتتيقّن أيها المسلم أن ما جاء به ﷺ قد أغنانا به عن جميع ما سواه، فلم يبق لك بعد هذا إلا الاتّباع، الذي لا يتحقق إلا بالعلم الرباني، ولهذا كلما حلّت بالأمة الفتن وكانت أمة اتّباع ورجوع إلى الكتاب والسنة إلا ووجدت الحل فيهما، وانظر ما وقع في غزوة الأحزاب حيث كان الصحابة محاصَرين من طرف اليهود وكفار قريش فلمّا رأوا رضي الله عنهم تكالب الأحزاب عليهم رجعوا إلى كتاب الله ﷻ فوجدوا فيه ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا

(١) أخرجه البخاري برقم(٣٢٧٠)، ومسلم برقم(٤٢٤١).

وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأحزاب:٢٢]، بماذا عاد عليهم رجوعهم إلى الكتاب والسنة؟: زيادة إيمان وصبر وقوة عزيمةٍ وثباتٍ على الحق حيث قالوا هذا ﴿ مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾ أي: هذا كمال الدين الذي أخبرنا بهذه الواقعة ﴿ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ ﴾، وسبحان الله! في كثير من الأحيان يدرك أعداء الإسلام من محاسن الإسلام وكماله ما لا يدركه كثير من المسلمين أنفسهم فهذا رجل من اليهود يأتي إلى عمربن الخطاب رضي الله عنه فيقول له «يا أمير المؤمنين: ءاية في كتابكم تقرؤونها، لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيدا[1]، قال: أيّ آية ؟ قال ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ

---

(١) وفي هذا فائدة جليلة وهي أن كل إنسان قد تربى على شيء ما وشبّ عليه حتى أُشربه قلبه فإنه لا يدعه وينساه إلا أن يشاء الله جل في علاه فـإن اليهود لما كان أُصلهم الابتداع في دين الله عز وجل والتشريع من دونه تبارك وتعالى من تحليل وتحريم أراد هذا اليهودي أن يبتدع دينا جديدا من عنده =

وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، قال عمر رضي الله عنه :عرفنا ذلك اليوم والمكان الذي نزلت فيه على النبي ﷺ وهو قائم بعرفة يوم الجمعة»[١]، وهذه بشارة عظيمة لأهل الإسلام فإن أهل الكتاب تمنّوا لو نزلت هذه الآية عليهم حتى يكمل لهم دينهم لأنهم رأوا أن دينهم المبتدع كثير التغيّر والتبدّل والتحريف فما كان اليوم حلالا صار في الغد حراما...وهكذا.

وعن عبد الرحمن بن يزيد عن سلمان رضي الله عنه أنه: «قال له بعض المشركين وهم يستهزؤون به إني أرى صاحبكم يعلمكم كل شيء حتى الخراءة قال: أجل، أمرنا أن لا نستقبل القبلة ولا نستنجي بأيماننا ولا نكتفي بدون ثلاثة أحجار ليس

= فلم ينس أصله الذي تربى عليه، وهذا يصدّقه المثل (وكل إناء بما فيه ينضح).

(١) أخرجه البخاري برقم: (٤٠٥٥ و٤٢٤٠)، ومسلم برقم:(٥٣٣٣ و٥٣٣٥) وأحمد برقم:(١٨٣ و٢٦١)، والترمذي برقم:(٢٩٦٩)، والنسائي برقم:(٢٩٥٢ و٤٩٢٦) من حديث طارق بن شهاب.

فيها رجيع ولا عظم»(١)، فما زاده رضي الله عنه إخباره بكمال الدين إلا عزة وافتخارا و لم يقل رضي الله عنه أنّ ما جاء به الشرع لا يفي بعشر معشار ما الناس في حاجة إليه تقديسا وتعظيما للعقل البشري.

وقد صحّ عن النبي ﷺ أنه قال:«إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم وينذرهم شر ما يعلمه لهم...»الحديث(٢)، قال الشافعي رحمه الله: «...فلم تمس بنا نعمة ظهرت ولا بطنت ولا نلنا حظا من دين أو دنيا، أو دُفع بها عنّا مكروه فيهما وفي واحد منهما؛ إلا ومحمد ﷺ سببها، القائد إلى خيرها، والهادي إلى رشدها، الذائد عن الهلكة وموارد السوء في خلاف الرشد، المنبه للأسباب التي تورد الهلكة، القائم بالنصيحة في الإرشاد

---

(١) رواه أحمد برقم:(٢٢٥٩٠)، وابن ماجه برقم:(٣١٢) بهذا اللفظ، ورواه بنحوه مسلم برقم:(٣٨٥)، وأبو داود برقم:(٠٦) والنسائي برقم:(٤١).

(٢) رواه أحمد برقم: (٦٢١٢و٦٥٠٣و٦٥٢٣)، ومسلم برقم: (٣٤٣١)، وأبو داود برقم: (٣٧٠٧)، والنسائي برقم: (٤١٢٠).

والإنذار فيها، فصلى الله على محمد وعلى آل محمد، كما صلى على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنه حميد مجيد». [١]

ولما قال كفار قريش للنبي ﷺ ﴿ ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ ﴾ [يونس:١٥] ومرادهم بذلك هو أن ينظروا هل يتنازل عن دينه أم لا؟ فإن قبل ما طلبوا وأجابهم إلى ما سألوا عرفوا أن هذا القرءان ليس من عند الله وإنما هو اختراع من عنده، فأمر الله عز وجل نبيه أن يجيبهم بقوله ﴿ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ ﴾ [يونس:١٥]، يعني: أن دين الله كامل فليس لي الحق في إدخال شيء من عندي أو إضافة شيء من تجربتي، ولهذا قال ﷺ: «إن مَثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا...» الحديث [٢]، فمن تأمّل لفظ الحديث جيدا وأمعن النظر فيه

---

(١) "الرسالة" للشافعي (١٦).

(٢) أخرجه أحمد برقم:(١٨٧٥٣)، والبخاري برقم:(٧٧)، ومسلم برقم: (٤٢٣٢).

أدرك إدراكا جازما لا شك فيه بأن هذا الدين كامل وأن ما أتى به النبي ﷺ إنما هو وحي من السماء لا مدخل للعقل فيه، « فالقرءان فيه بيان كل شيء... فالعالم به على التحقيق عالم بجملة الشريعة ولا يعوزه منها شيء والدليل على ذلك أمور منها النصوص القرءانية من قوله ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [المائدة:٠٣] وقوله ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النحل:٨٩] وقوله ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام:٣٨] وقوله ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء:٠٩]، يعني: الطريقة المستقيمة، ولو لم يُكمل فيه جميع معانيها لما صحّ إطلاق هذا المعنى عليه حقيقة، وأشباه ذلك من الآيات الدالة على أنه هدى وشفاء لما في الصدور ولا يكون شفاء لجميع ما في الصدور إلا وفيه تبيان كل شيء...»[1]. ومّما يزيد هذا بيانا ووضوحا قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى

---

(١) "الموافقات" للشاطبي(٤/١٨٤).

وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [يونس:٥٧] وقوله ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الإسراء:٨٢]، ومعلوم أن الأمراض نوعان: **جسمية**، و**روحية** وكلاهما قد بينه القرءان على أحسن وجه، قال العلامة ابن القيم: «...فالقرءان هو الشفاء التام من جميع الأدواء القلبية والبدنية وأدواء الدنيا والآخرة وما كل أحد يُؤهل ويُوفّق للاستشفاء به، وإذا أحسن العليل التداوي به ووضعه على دائه بصدق وإيمان وقبول تام واعتقاد جازم واستيفاء شروطه لم يقاومه الداء أبدا، وكيف تقاوم الأدواء كلام رب الأرض والسماء الذي لو نزل على الجبال لصدّعها أو على الأرض لقطعها، فما من مرض من أمراض القلوب والأبدان إلا وفي القرءان سبيل الدلالة على دوائه وسببه والحمية منه لمن رزقه الله فهما في كتابه»(١)، هذا فيما يتعلق بالأمراض البدنية وأما الأمراض الروحية فقد أوضحها القرءان بنوعيها: الشبهات والشهوات، وفي هذا السياق يقول ابن

---

(١) "زاد المعاد" لابن القيم (١٧٨/٣).

القيم: « والقرءان شفاء للنوعين ففيه من البينات والبراهين القطعية ما يبين الحق من الباطل فتزول أمراض الشبه المفسدة للعلم والتصور والإدراك بحيث يرى الأشياء على ما هي عليه، وليس تحت أديم السماء كتاب متضمن للبراهين والآيات على المطالب العالية من التوحيد وإثبات الصفات وإثبات المعاد والنبوّات وردّ النِّحل الباطلة والآراء الفاسدة مثل القرءان فإنه كفيل بذلك كله، متضمن له على أتمّ الوجوه وأحسنها وأقربها إلى العقول وأفصحها بيانا، فهو الشفاء على الحقيقة من أدواء الشبه والشكوك ولكن ذلك موقوف على فهمه ومعرفة المراد منه فمن رزقه الله تعالى ذلك أبصر الحق والباطل عيانا بقلبه كما يرى الليل والنهار، وعلم أن ما عداه من كتب الناس وآرائهم ومعقولاتهم؛ بَيْنَ علوم لا ثقة بها وإنما هي آراء وتقليد وهي ظنون كاذبة لا تغني من الحق شيئا، وبَيْنَ أمور صحيحة لا منفعة للقلب فيها وبَيْنَ علوم صحيحة قد وعّروا الطريق إلى تحصيلها وأطالوا الكلام في إثباتها مع قلة نفعها فهي

"لحم جمل غث على رأس جبل وعر لا سهل فيرتقى ولا سمين

فينتقل"، وأما شفاؤه لمرض الشهوات فذلك بما فيه من الحكمة والموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب والتزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة والأمثال والقصص التي فيها أنواع العبر والاستبصار فيرغب القلب السليم إذا أبصر ذلك فيما ينفعه في معاشه ومعاده ويرغب عمّا يضره فيصير القلب محباً للرشد مبغضا للغيّ، فالقرءان مزيل للأمراض الموجبة للأمراض الفاسدة فيصلح القلب فتصلح إرادته ويعود إلى فطرته التي فطر عليها فتصح أفعاله الاختيارية الكسبية كما يعود البدن بصحته وصلاحه إلى الحال الطبيعي فيصير بحيث لا يقبل إلا الحق كما أن الطفل لا يقبل إلا اللبن:

وعاد الفتى كالطفل ليس بقابل
سوى الحق شيئا واستراحت عواذله

فيتغذّى القلب من الإيمان والقرءان بما يزكيه ويقوّيه ويؤيده ويفرحه ويسره وينشطه ويثبت ملكه كما يتغذى البدن بما ينميه ويقويه، وكل من القلب والبدن محتاج إلى أن يربّى بالأغذية المصلحة والحمية عما يضره، فلا ينموا إلا

بإعطاء ما ينفعه ومنع ما يضره فكذلك القلب لا يزكــو ولا ينمو ويتمّ صلاحه إلا بذلك، ولا سبيل له إلى الوصــول إلى ذلك إلا من القرءان، وإن وصل إلى شيء منه من غيره فهــو نزر يسير لا يحصل تمام المقصود، وكذلك الزرع لا يــتم إلا بهذين الأمرين فحينئذ يقال زكا الزرع وكمُل».[1]

وتتجلّى هذه الحقيقة في قوله تعالى ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾ [البقرة: ١٢٠] ففي جميع الحالات التي يكون للشرع فيها مدخل فإن الهدى هدى الله هو الكتاب والسنّة اللذان «لم يتركا في سبيل الهداية لقائل ما يقول ولا أبقيا لغيرهما مجالا يُعتدّ به فيه وأن الدين قد كمل والسعادة فيما وضع والطِّلْبة في ما شرع وما سوى ذلك فضلال وبهتان وإفك وخسران وأن العاقد عليهما بكِلتا يديه مستمسك بالعروة الوثقى ومحصّل لكلية الخير دنيا وأخرى، وما سواهما

---

(١) "إغاثة اللهفان "لابن القيم(١/٩٩ -١٠١ فما بعدها).

فأحلام وخيالات وأوهام...»[١].

فحقيقة الهداية موجودة في كتاب الله لا في غيره، وأعظم بشارة لمن اتبع هدى الله عدم الضلال لقوله تعالى ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [طه:١٢٣]، والضلال هو التيه والضياع والانحراف عن الصراط المستقيم ولهذا قال تبارك وتعالى ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾ ﴾ [الفاتحة: ٧] وفي قوله تعالى ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ ﴾ إشارة لطيفة حيث قال "**اتبع**" ولم يقل "عَلِمَ" لأن العلم وحده بدون عمل لا يفيد صاحبه شيئا، فهؤلاء اليهود عندهم علم ومع ذلك لم ينفعهم بل أضلهم لأنهم لم يعملوا به فأدّاهم ذلك إلى سخط الله وغضبه عليهم، والذي يؤكد هذا حديث زياد بن لبيد رضي الله عنه قال:ذكر النبي ﷺ شيئا فقال: « **ذاك عند أوان ذهاب العلم،** قلت: يا رسول الله كيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرءان ونقرئه أبناءنا ويُقرئه أبناؤنا أبناءهم إلى يوم القيامة، قال: **ثكلتك أمك يا زيادُ إن كنت لأراك من أفقه**

(١) "الاعتصام" للشاطبي (١/١٤).

رجل بالمدينة، أوَ ليس هذه اليهود والنصارى يقرؤون التوراة والإنجيل لا يعملون بشيء مما فيهما».[١]

ولهذا أمر الله عباده في كل صلاة أن يستهدوه صراطه المستقيم غير صراط المغضوب عليهم في قوله تعالى ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾ [الفاتحة:٦-٧]، فغضب الله ﷻ على اليهود بسبب أهم علموا و لم يعملوا، وعليه فالعلم والمعرفة وحدهما لا يكفيان، بل لابد من تحقيق الاتباع لما عُلِم من السنّة والقرءان، وقوله ﴿ وَلَا يَشْقَىٰ ۝١٢٣ ﴾ لأنه من ضلّ الطريق شقي وتعب. وقال في الآية الأخرى ﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٣٨ ﴾ [البقرة:٣٨] يعني:فيه أمن وفرح لتوفيق الله ﷻ لهم، وليس فرح البطر[٢] .

---

(١) أخرجه ابن ماجة برقم:(٤٠٣٨)، وأحمد برقم:(١٦٨٢٨- ١٧٢٤١)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه برقم:(٤٠٤٨)، وانظر إرواء الغليل رقم:(٢٧٧).

(٢) لأن الفرح ينقسم إلى قسمين: =

وهذا نبي الله عيسى عليه السلام وهو من أولي العزم من الرسل ينزل في ءاخر الزمان فلا يحكم إلا بشريعة الإسلام فدلّ ذلك على أنه إذا كان عيسى عليه السلام الذي أنزل عليه كتاب من عند الله عز وجل يحكم بشريعة محمد ﷺ فإن هذا الدين كامل لا نقص فيه، تام لا يحتاج إلى زيادة، قال العلامة صدّيق حسن خان رحمه الله تعالى :«والذي نفسي بيده إن دين الإسلام كامل غير ناقص ولا يحتاج إلى شيء في كماله وإتمامه، ونصوصه مع أدلة السنة المطهرة كافية وافية شافية

=١- **فرح مشروع جائز**:وهو لتوفيق الله تبارك وتعالى كما في قوله تعالى ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ ﴾ [يونس:٥٨] وقوله جل وعلا ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [آل عمران:١٦٩-١٧٠].=

٢- **فرح مذموم محرّم**:وهو فرح البطر والعلوّ والطغيان كما قال تعالى حكاية عن قوم قارون في نصحهم له بقولهم ﴿ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ [القصص:٧٦].

لجميع الحوادث والقضايا إلى يوم القيامة»(١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «قاعدة في وجوب الاستقامة ومتابعة الكتاب والسنة في باب أسماء الله وصفاته وتوحيده بالقول والاعتقاد وبيان اشتمال الكتاب والسنة على جميع الهدى، وأن التفرق والضلال إنما بترك بعضه والتنبيه على جميع البدع المقابلة في ذلك بالزيادة في النفي والإثبات ومبدأ حدوثها وما وقع في ذلك من الأسماء المجملة والاختلاف والافتراق الذي أوجب تكفير بعض هؤلاء المختلفين بعضهم لبعض ذلك بسبب ترك بعض الحق وأخذ بعض الباطل وكتمان الحق ولبس الحق بالباطل»(٢).

وقال أيضا: « فصل: الرأي المحدث في الأصول وهو الكلام المحدث وفي الفروع وهو الرأي المحدث في الفقه والتعبد المحدث كالتصوّف المحدث والسياسة المحدثة، يظن طوائف من

---

(١) كما في "تحفة الأحوذي" (٧/٧٢).

(٢) "الاستقامة"لابن تيمية (١/٠٣).

الناس أن الدين محتاج إلى ذلك وليس الأمر كذلك فإن الله تعالى يقول ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ الآية، إلى غير ذلك من النصوص التي دلت على أن الرسول ﷺ عرّف الأمة جميع ما يحتاجونه من دينهم، قال تعالى ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ ﴾ [التوبة:١١٥] وقال رسول الله ﷺ: "**تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك**"(١)، وقال رسول الله ﷺ: "**إنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين...**"الحديث(٢)، فلولا أن سنته وسنة الخلفاء الراشدين تسع المؤمن وتكفيه عند الاختلاف الكثير لم يجز الأمر بذلك».(٣)

---

(١) رواه أحمد برقم:(١٦٥١٩)، و ابن ماجه برقم: (٤٣) من حديث العرباض بن سارية ـــ رضي الله عنه ـــ وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة برقم:(٤٣)، وانظر الصحيحة رقم:(٩٣٧).

(٢) سبق تخريجه ص (١١).

(٣) "الاستقامة" (١/٠٣).

ويقول أيضا: « ولا ريب أن هذا يُشكل على كثير من الناس لعدم علمهم بالنصوص ودلالاتها على المقاصد، ولعدم علمهم بما أُحدث من الرأي والعمل، وكيف يُردّ ذلك إلى السنة كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه :" رُدّوا الجهالات إلى السنة "، وقد تكلم الناس على أصناف ذلك، كما بين طوائف استغناء الدّين عن القول المحدث وأن الله قد بيّن في كتابه من الأمثال المضروبة من الدلائل ما هو أعظم منفعة ممّا يُحدثُه هؤلاء، وأن ما يذكرونه من الأدلة فهي مندرجة فيما ذكره الله ﷻ، حتى إن الأشعري نفسه وأمثاله قد بيّنوا طريقة السلف في أصول الدين واستغناءها عن الطريقة الكلامية كطريقة الأعرابي ونحوها، وأن القرءان نبه على الأدلة ليس دلالته كما يظنه بعض أهل الكلام من جهة الخبر فقط، وأين هذا من أهل الكلام الذين يقولون إن الكتاب والسنة لا يدلان على أصول الدين بحال، وأن أصول الدين تُستفاد من قياس العقل المعلوم عن غيرها، وكذلك الأمور العملية التي يتكلم فيها الفقهاء فإن من الناس من يقول إن القياس يحتاج

إليه في معظم الشريعة لقلة النصوص الدالة على الأحكام الشرعية كما يقول ذلك أبو المعالي الجويني وأمثاله من الفقهاء مع انتسابهم إلى مذهب الشافعية ونحوهم من فقهاء الحديث، فكيف بمن كان من أهل رأي الكوفة ونحوهم فإن عندهم لا يثبت من الفقه بالنصوص إلا أقل من ذلك، وإنما العمدة على الرأي والقياس حتى أن الخراسانيّين من أصحاب الشافعي بسبب مخالطتهم لهم غلب عليهم استعمال الرأي وقلة المعرفة بالنصوص»[(١)].

وقد نبغت نابغة في الأزمان المتأخرة فقالت: إن الشريعة لا تفي بعشر معشار ما الناس في حاجة إليه، ليفتحوا على أنفسهم وعلى الناس باب القيل والقال من غير دليل ولا استدلال، وهذا القول منهم طعن في كمال الدين وجهل بنصوص الكتاب والسنة.

ومن الأدلة أيضا على كمال هذا الدين قوله تعالى ﴿ وَهَـٰذَا

(١) "الاستقامة"لابن تيمية(١/٠٥).

كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ [الأنعام: ١٥٥]، قال العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله تعالى: « (**وهذا**) القرءان العظيم والذكر الحكيم (**كتاب أنزلناه مبارك**) أي: فيه الخير الكثير والعلم الغزير، وهو الذي تُستمد منه سائر العلوم وتُستخرج منه سائر البركات، فما من خير إلا وقد دعا إليه ورغب فيه وذكر الحكم والمصالح التي تحث عليه وما من شر إلا وقد نهى عنه وحذر منه وذكر الأسباب المنفرة عن فعله وعواقبها الوخيمة (**فاتبعوه**) فيما يأمر به وينهى، وابنوا أصول دينكم وفروعه عليه (**واتقوا**) الله تعالى أن تخالفوا له أمرا (**لعلكم**) إن اتبعتموه (**ترحمون**) فأكبر سبب لنيل رحمة الله، اتباع هذا الكتاب علما وعملا...» إلى أن قال: «...وفي هذه الآيات دليل على أن علم القرءان أجل العلوم وأبركها وأوسعها، وأنه به تحصل الهداية إلى الصراط المستقيم هداية تامة، لا يحتاج معها إلى تخرّص المتكلفين ولا إلى أفكار

المتفلسفين ولا لغير ذلك من علوم الأولين والآخرين»[١] .

وقال العلاّمة عبد الحميد بن باديس- رحمه الله-:

«...ونؤمن بأن القرءان العظيم أنزله الله تعالى هداية عامة لجميع البشر لما فيه سعادتهم الدنيوية والأخروية بتنوير العقول وتزكية النفوس وتقويم الأعمال، وإصلاح الأحوال وتنظيم الاجتماع البشري على أكمل نظام، وأن كل ما خالفه فهو ضالّ...».[٢] وقد ثبت في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال:«**إن أول ما خلق الله القلم فقال أكتب فقال ما أكتب، قال أكتب القدر ما كان وما هو كائن إلى الأبد**»[٣]، أفيخفى بعد هذا على الله ﷻ شيء يكون الناس بحاجة إليه ؟

---

(١) "تفسير السعدي" (ص:٢٤٣- ٢٤٤).

(٢) "العقائد الإسلامية" لابن باديس (ص:١٠٢/ فقرة ٦٥).

(٣) رواه أحمد برقم:(٢١٦٤٧)، وأبو داود برقم:(٤٠٨٧)، والترمذي برقم:(٢٠٨١) من حديث عبادة بن الصامت ــ رضي الله عنه ــ وصححه العلامة الألباني في تخريج"السنة" لابن أبي عاصم برقم:(١٠٢- ١٠٣- ١٠٤- ١٠٥).

ويؤكد هذا ما رفعه أبو الدرداء رضي الله عنه إلى النبي ﷺ أنه قال: «ما أحل الله في كتابه فهو حلال وما حرم فهو حرام وما سكت عنه فهو عفو فاقبلوا من الله عافيته، فإن الله لم يكن لينسى شيئا، وتلى ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾ [مريم:٦٤] »(١)،

ولابن عقيل الحنبلي رحمه الله كلام بديع بأسلوب رفيع حول هذه المسألة يجدر بنا أن نذكره في هذا المقام كما نقله عنه الإمام الهمام شيخ الإسلام ابن القيم رحمه الله حيث قال:

«...وتقسيم بعضهم طرق الحكم إلى شريعة وسياسة(٢)

---

(١) أخرجه الحاكم في "المستدرك" برقم:(٣٤١٩) وصحح إسناده، وحسنه الألباني في الصحيحة برقم:(٦٥٢٢) وفي غاية المرام برقم:(٢).

(٢) يريد به أصحابه إبعاد الناس عن دين الإسلام ,وهؤلاء الذين قسموا هذا التقسيم، فجعلوا جانب السياسة للبشر يقولون فيه ما يشاءون و أما جانب الدين فليس لهم الحق أن يتكلموا فيه كما يقولون (دع ما لقيصر لقيصر ودع ما لله لله) وهي ما تسمى الآن (بالعلمانية) التي تقوم أساسا على (مبدأ فصل الدين عن الدولة)، إنما فعلوا ذلك لغياب كمال هذا الدين عن أذهانهم وخفاء حقيقته عن عقولهم و هذا خطأ جسيم وخطر عظيم.

كتقسيم غيرهم الدين إلى شريعة وحقيقة[(١)]، وكتقسيم آخرين

---

(١) هؤلاء هم المتصوفة: وقد جعلوا الحقيقة عبارة عن أشياء لم يأت بها الشرع، فرسموا لمن أراد الوصول إليها طرقا ما أنزل الله بها من سلطان . فابن عقيل - رحمه الله- يريد أن يبين لنا بأننا لسنا في حاجة إلى آراء الناس وتقسيماتهم و إنما حاجتنا إلى ما جاءنا عن ربنا، فكل من أرشدنا إلى ما جاءنا عن ربنا فذاك هو المتّبع و كلامه هو المقبول، فلا وصاية لأحد على الدين وإنما على العالم أن يبلغ للأمة ما جاءها عن ربها ﷻ فالحقيقة هي كل ما جاء عن الله ﷻ وقرب منه كما قال ﷺ في الحديث القدسي:«**ولا يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبه...**»[أخرجه البخاري (١١/٣٤٠ - ٣٤١ - فتح) من حديث أبي هريرة]. فهذه هي الحقيقة الشرعية التي جاء بها القرءان والسنة . والنبي ﷺ هو أول من قام بحقيقة القرب من الله ﷻ عملا وبيّن ذلك قولا لمّا أراد بعض الصحابة أن يكثروا من العبادات ليزدادوا قربا من الله ﷻ وتقالّوا أعماله بحجة أنه قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. فبيّن لهم ﷺ أنه لا حقيقة ولا طريقة موصلة إلى الله ﷻ إلا بإتباع هديه فقال عليه الصلاة والسلام «...**فمن رغب عن سنتي فليس مني** »[أخرجه البخاري برقم: (٤٦٧٥)، ومسلم برقم: (٢٤٨٧)، والنسائي برقم:(٣١٦٥)، و أحمد برقم: (١٣٠٤٥) من حديث أنس]. فيجب أن نتأكد أنّ الحقيقة كل الحقيقة هي ما جاء به الشرع من غير زيادة ولا=

الدين إلى عقل ونقل، كل ذلك تقسيم باطل بـــل السياســـة والحقيقة والطريقة والعقل كل ذلك ينقسم إلى قسمين صحيح وفاسد، فالصحيح قسم من أقسام الشــريعة لا قســيم لهــا والباطل ضدّها ومنافيها وهذا الأصل من أهم الأصول وأنفعها وهو مبني على حرف واحد وهو عموم رسالته صلى الله عليه

=نقصان، فنحن الآن بحاجة إلى من أدرك كمال هذا الدين من أهل العلم وطلبته وآتانا بما جاء عن رب العالمين وهذا ما وضحه النبي ﷺ بقوله : «**إن العلمـــاء ورثة الأنبياء...**» فالعالم الذي يقود الأمة هو من كان حاملا لميراث النبوة وقام بتبليغه كما جاء ، وأكد ذلك بقوله «...**وإن الأنبياء لم يورثـــوا دينـــارا ولا**= = **درهما وإنما ورثوا العلم فمن أخذ به أخذ بحظ وافر**» [أخرجه أبـــو داود برقم:(٣١٥٧)، والترمذي برقم: (٢٦٠٦)، وابن ماجه برقم:(٢١٩)، والدارمي برقم:(٣٤٦) من حديث أبي الدرداء وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود برقم:(٣٦٤١)، وانظر المشكاة برقم: (٢١٢)] فحدد رسول الله ﷺ معتهيندنا لم العلم والعالم ومع ذلك كله نجد الناس ،يعيشون في حيرة من أجل عدم التفريق بين العالم وغيره ،فأصبح المهندس الزراعي والدكتور الفيزيائي هو الذي يأمر وينهى والعالم بالشرع هو المتشدد البعيد عـــن العصـــرنة والحضـــارة والله المستعان.

وسلم بالنسبة إلى كل ما يحتاج إليه العباد في معارفهم وعلومهم وأعمالهم وأنه لم يحوج أمته إلى أحد بعده، وإنما حاجتهم إلى من يبلغهم عنه ما جاء به، فلرسالته عمومان محفوظان لا يتطرق إليهما تخصيص، عموم بالنسبة للمرسَل إليهم وعموم بالنسبة إلى كل ما يحتاج من بُعث إليه في أصول الدين وفروعه، فرسالته كافية شافية عامة فلا تُحوج إلى سواها، ولا يتم الإيمان به إلا بإثبات عموم رسالته في هذا وهذا، فلا يخرج أحد من المكلفين عن رسالته، ولا يخرج نوع من أنواع الحق الذي تحتاج إليه الأمة في علومها وأعمالها عما جاء به، وقد توفي رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر لأمته منه علما، وعلّمهم كل شيء حتى آداب التّخلّي وآداب الجماع والنّوم والقيام والقعود والأكل والشرب والركوب والنزول والسفر والإقامة والصّمت والكلام والعزلة والخلطة والغنى والفقر والصّحة والمرض وجميع أحكام الحياة والموت، ووصف لهم العرش والكرسي والملائكة والجن، والنار والجنة ويوم القيامة وما فيها حتى كأنه رأي

العين، وعرفهم معبودهم وإلههم أتمّ تعريف حتى كأنهم يرونه ويشاهدونه بأوصاف كماله ونعوت جلاله، وعرفهم الأنبياء وأممهم وما جرى لهم وما جرى عليهم حتى كأنهم كانوا معهم، وعرفهم طرق الخير والشرّ دقيقها وجليلها ما لم يعرّفهم نبيّ لأمته قبله وعرّفهم من أحوال الموت وما يكون بعده في البرزخ وما يحصل فيه من النعيم والعذاب للروح والبدن ما لم يعرّف به نبي غيره وكذلك عرفهم صلى الله عليه وسلم من أدلة التوحيد والنبوة والمعاد والرد على جميع فرق أهل الكفر والضلال ما ليس لمن عرفه حاجة لمن بعده، اللهم إلا من يبلغه إياه ويبينه ويوضح منه ما خفي عليه، وكذلك عرفهم صلى الله عليه وسلم من مكايد الحروب ولقاء العدوّ وطرق النصر والظفر ما لو علموه وعقلوه ورعوه حق رعايته لم يقم لهم عدو أبدا».[1]

فالواجب إذاً على علماء المسلمين أن يتفقهوا في الكتاب والسنة وأن يبلّغوا ما فيهما إلى الأمة لأن فيهما الكمال ولأن

(١) " أعلام الموقعين" (٤/٤٦٣).

الاعتصام بهما هو النجاة، لا أن يُفنوا أعمارهم في تتبع الألغاز وشواذ المسائل، قال العلامة المقري رحمه الله : «يُكره تكثير الفروض النادرة والاشتغال عن حفظ الكتاب والسنة والتفقه فيهما بحفظ آراء الرجال والاستنباط منها والبناء عليها وبتدقيق المباحث وتقدير النوازل فالمهم المقَدّم، وما أضعف حجة من يريد القيامة وقد أنفق عمرا طويلا في العلم فيُسأل عمّا عَلِم من كتاب الله عز وجل وسنة رسول الله ﷺ فلا يوجد عنده أثارة من ذلك، بل يوجد قد ضيع فرضا كثيرا من فروض العين من العلم بإقباله على حفظ فروض اللعان والمأذون وسائر الأبواب النادرة الوقوع وتتبّع سائر كتب الفقه مقتصرا من ذلك على القيل والقال معرضا على الدليل والاستدلال، بل الواجب[1] الاشتغال بحفظ الكتاب والسنة وفهمهما والتفقه فيهما والاعتناء بكل ما يتوقف المقصود

---

(١) فانظر رحمك الله كيف أوجب التفقه في الكتاب والسنة لا ما يوجبه كثير من الناس من التمذهب والتفقه على المذاهب.

منهما...».[١]

شبهة والجواب عنها:

إذا تقرر هذا فاعلم أن هناك شبهة يلهج بها كثير من المفكرين ويدندن حولها الكثير من المتفلسفين والعقلانيين حتى انطلت على العوام، وهي قولهم بأن الكتاب والسنة لا يمكن لوحدهما أن نجادل بهما الملاحدة ولا يفيان بالغرض في ذلك بل لابد من إضافة علم الكلام والفلسفة!!

وللجواب عنها نقول: إن السلف رضي الله عنهم فتحوا الأمصار والبلدان بالسنة والقرءان وظلوا على ذلك ردحا من الزمان حتى نبتت نابتة من المسلمين تزعم أن دعوة الناس إلى الإسلام والدّفاع عن هذا الدين من شبه المبطلين لا تكفي بالكتاب والسنة، بل لابد من إضافة علم الكلام والفلسفة فترجموا كتب اليونان وأخذوا ما فيها من الأفكار السخيفة والآراء الضعيفة. وتَذكُر كتب الفِرق والمقالات أن الذين

---

(١) "القواعد" للمقري (القاعدة: ٢٢٤).

قاموا بهذه العملية هم المعتزلة وذلك أيام خلافة المأمون، حيث قام بتعريب كتب الأوائل من الفلاسفة وغيرهم فنشأ عن ذلك علم الكلام الذي أفسد الأمة بعدما كانت في عافية وخير، ثم بعد ذلك قاموا بتأسيس "دار الحكمة" من أجل هذا الغرض، والسبب والدافع إلى هذا يرجع إلى افتقارهم إلى غير الكتاب والسنة، وهذا خطأ عظيم فإن النبي ﷺ قد خاطب مشركي قريش ودعاهم إلى الإسلام وهُم مَن هُم في الكفر والإلحاد بالقرءان العظيم فكيف يُقال بأن القرءان لا يكفي في دعوة الناس؟ والأدهى من ذلك قولهم (الفلسفة أم العلوم)! ألا يُعد هذا خذلاناً وطعناً في القرءان الكريم حيث جعلوا الفلسفة أعلى مرتبة من القرءان الكريم؟ اللهم بلى! وكيف يصح هذا والله عز وجل يقول ﴿ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾ [الفرقان:٥٢]، فالقرءان الكريم فيه ما يكفي لدعوة أكفر خلق الله وأفجرهم لأنه يحتوي على جميع أساليب الدعوة والهداية ففيه الآيات الكونية والآيات الشرعية والترغيب والترهيب،

أما الفلاسفة وعلماء الكلام فأرادوا أن يصلوا بالإنسان إلى الحياة المثالية والمدينة الفاضلة بطريق العقل والرأي والفلسفة ولكن كل ذلك لا يتأتى لهم لأنه لا يأتي فيلسوف متأخّر عن شيخه السابق إلا ونقض قوله وأتى على بنيانه من القواعد، كحال الذين قال الله عنهم ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾ [الأعراف:٣٨]، فالقرءان الكريم والسنة النبوية فيهما الكفاية كل الكفاية « في أحكام الدين أصوله وفروعه، فكل متكلف يزعم أنه لابد للناس في معرفة عقائدهم وأحكامهم إلى علوم غير علم الكتاب والسنة من علم الكلام وغيره فهو جاهل مبطل في دعواه قد زعم أن الدين لا يكمل إلا بما قاله ودعا إليه وهذا من أعظم الظلم والتجهيل لله ولرسوله- صلى الله عليه وسلم ...»، [1] فالصحابة رضي الله عنهم فتحوا الأمصار ولم يكونوا يعرفون لا الفلسفة ولا علم الكلام ولهذا قال ابن عقيل رحمه الله: « أنا أقطع أن الصحابة ماتوا وما

---

(١) "تفسير السعدي"(ص١٨٣).

عرفوا الجوهر والعرض فإن رضيت أن تكون منهم فكن، وإن رأيت أن طريقة المتكلمين أولى من طريقة أبي بكر وعمر فبئس ما رأيت»[١].

إذاً، فليسعنا ما وسعهم وعلينا أن نتمسك بغرزهم، ولو كانت الفلسفة وعلم الكلام خيرا لسبقونا إليه، «فلا يُعقل أن يُحجب حق عن الصحابة ويُدَّخر لأناس يجيئون بعدهم»[٢]، قال إبراهيم النخعي رحمه الله :«لم يُدّخر لكم شيء خُبئ من القوم لفضل عندكم»[٣]، فالقرءان فيه ما يكفي إلى دعوة الناس مهما كانت نحلهم وعقائدهم وذلك لأنه يخاطب الإنسان من ثلاث جهات لا من جهة واحدة من جهة العقل فقط، فإن لم يقتنع بجهة اقتنع بجهة أخرى:

(١) **"الانتقاد الرجيح** في شرح الاعتقاد الصحيح"للعلامة صديق حسن خان القنّوجي (ص٦٠).

(٢) "شرح القيروانية" للشيخ عبد المحسن العبّاد (ص١٥).

(٣) "جامع بيان العلم وفضله" لابن عبد البر (٢/٩٤٦).

الجهة الأولى: من جهة الفطرة لقوله تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الأعراف: ١٧٢-١٧٣].

ويدل على هذا أيضا ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه وينصّرانه ويمجّسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها جدعاء، ثم يقول أبو هريرة - رضي الله عنه- ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ ﴾ [الروم: ٣٠]»(١)، وكذلك ما رواه عياض ابن حمار المُجاشعي أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته

---

(١) أخرجه مالك برقم: (٥٠٧) وأحمد برقم: (٦٨٨٤- ٧١٣٢- ٧٣٨٧- ٧٤٦٣- ٧٨٣٢- ٨٢٠٦- ٨٧٣٩- ٨٩٤٩- ٩٨٥١)، و البخاري برقم: (١٢٧٠- ١٢٧١- ١٢٩٥- ١٢٩٦)، ومسلم برقم: (٤٨٠٤- ٤٨٠٥- ٤٨٠٦- ٤٨٠٧)، وأبو داود برقم: (٤٠٩١)، والترمذي برقم: (٢٠٦٤).

« ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا كل مال نحلته عبدا حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحلَلْتُ لهم وأمرَتْهُم أن يشركوا ما لم أُنزل به سلطانا...» الحديث[1] .

الجهة الثانية: من ناحية العقل البشري ويظهر ذلك من خلال الآيات التي تأمر بالنظر في الكون والآفاق والأنفس والتدبّر فيها كقوله تعالى ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الغاشية:١٧- ٢٠] وقوله تعالى ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾

---

(١)أخرجه أحمد برقم:(١٦٨٣٧) ومسلم برقم:(٥١٠٩).

[البقرة:١٦٤]، وقوله ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الذاريات:٢١]، وكذلك مُحاجّة الله تعالى للكافرين بالآيات والبراهين العقلية مثل مجادلة إبراهيم - عليه السلام - لقومه لإبطال عبادة الأصنام قال تعالى ﴿ ۞ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمۡ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرٗا لَّهُمۡ لَعَلَّهُمۡ إِلَيۡهِ يَرۡجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتٗى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ فَأۡتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ

عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الأنبياء:٥١-٦٧]، فانظر كيف أنهم أقرّوا في أنفسهم بحجة إبراهيم العقلية من أن الأصنام لا تنطق فليست أهلا لأن تُعبد لكنهم استحبوا الضلال على الهدى، وكذلك مثل مناظرة إبراهيم عليه السلام لقومه في إبطال عبادة غير الله قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الأنعام:٧٦- ٧٨]، ثم قال الله تعالى بعد هذه الآيات ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ ﴾ [الأنعام:٨٣]، فإبراهيم عليه السلام كان مناظرا لقومه ولم يكن ناظرا كما زعمته الأشاعرة وهم بذلك

يتهمون إبراهيم من حيث لم يشعروا بأنه لم يكن موحدا ثم نَظر في الكون فاهتدى إلى التوحيد ثم قالوا بناء على هذا إن أول واجب هو النَّظر، وهذا زعم باطل ومذهب عاطل لأنه يخالف هذه الآية وفيه طعن في نبي الله إبراهيم الذي أرسله الله بدعوة التوحيد، ثم إن الأصل في الناس التوحيد لأنه الفطرة التي فطر الله عز وجل الناس عليها كما مرَّ معنا من قول النبي ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة...» الحديث[1]، وزعمُ الأشاعرة أن أول واجب هو النظر يلزم منه أن الأصل في الناس الشرك ولا يخفى بطلان هذا ومخالفته لصريح القرءان والسنة.

الجهة الثالثة: من الجانب الروحي الوجداني أو ما يسمى بالترغيب والترهيب « فإن الدّلالات الشرعية الصادرة عن اللطيف الخبير وعن نبيه البشير النذير تُقنع وتُسكِن النفوس

---

(١) سبق تخريجه ص (٢٦).

وتغرس في القلوب الاعتقادات الصحيحة»[(١)]، ويتجسّد ذلك جليًا في بداية سورة الحج قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢ ﴾ [الحج: ١- ٢]، وغيرها من السور؛ كسورة(ق) و(يس).

وهذا بخلاف الخطاب البشري فإنه يخاطب العقل فقط، ولهذا قالت المعتزلة إذا تعارض الدليل النقلي مع الدليل العقلي قدّمنا الدليل العقلي لأن دلالة النقل ظنية ودلالة العقل قطعية، والأعجب من ذلك فعل الأشاعرة الذين تحكّموا في النصوص بعقولهم حتى قال قائلهم[(٢)] :

وكل نص أوهم التشبيه أوّله أو فوّض ورُم تنزيها

بل يزداد العجب ولا ينقضي من ذلك السّنوسي الـــذي

---

(١) "الانتقاد الرجيح" صدّيق القنّوجي (٣٩).

(٢) "جوهرة التوحيد" للقاني (رقم البيت: ٤٠).

يقول: « أصول الكفر ستّة فذكر منها خمسة ثم قال سادسا: التمسك في أصول العقائد بمجرد ظواهر الكتاب والسنة من غير عرضها على البراهين العقلية والقواطع الشرعية»[1]، سبحانك هذا بهتان عظيم!! نسأل الله السلامة والعافية.

قال ابن أبي العزّ الحنفي: « وأحسن ما عندهم فهو في القرءان أصحّ تقريراً وأحسن تفسيراً فليس عندهم إلا التكلف والتطويل والتعقيد كما قيل:

لولا التنافس في الدنيا لما وضعت

كتب التناظر لا المغني ولا العمد

يحلّلون بزعم منهم عُقدا

وبالذي وضعوه زادت العقد

فهم يزعمون أنهم يدفعون بالذي وضعوه الشبه والشكوك والفاضل الذكي يعلم أن الشبه والشكوك زادت

(١) "شرح الكبرى" للسنوسي(ص٥٠٣).

بذلك، ومن المحال ألا يحصل الشفاء والهدى والعلم واليقين من كتاب الله وكلام رسوله ويحصل من كلام هؤلاء المتحيّرين».[١]

وقال العلامة صديق حسن خان « فمن زعم أن الحق في كلام علماء الكلام والتوحيد هو الذي جاء به هؤلاء الطّغام والملاحدة والفلاسفة اللئام، والقرءان لا يكفي في ذلك والحديث لا يغني عما هنالك فقد خرج عن دائرة الإسلام وعليه دائرة السوء من الله العزيز العلاّم».[٢]

وقال القاضي عياض في كتابه "الشفا" في معرض ذكر إعجاز القرءان «...ومنها جمعه لعلوم ومعارف لم تعهد العرب عامّة ولا محمد ﷺ قبل نبوته خاصّة معرفتها ولا القيام بها ولا يحيط بها أحد من علماء الأمم ولا يشتمل عليها كتاب من كتبهم، فجمع فيه من بيان علم الشرائع والحجج والتنبيه

---

(١) "شرح الطحاوية" لابن أبي العز الحنفي (١/٢٣٨).

(٢) "الدين الخالص" (١/١٥٣).

على طرق الحجج العقلية والرد على فرق الأمم ببراهين قويّة وأدلة بيّنة سهلة الألفاظ موجزة المقاصد رام المتحذلقون بعد أن ينصبوا أدلة مثلها فلم يقدروا عليها كقوله ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ ﴾ [يس:٨١] وقوله ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ ﴾ [يس:٧٩] وقوله ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ ﴾ [الأنبياء:٢٢]، إلى ما حواه من علوم السّير وأنباء الأمم والمواعظ والحكم». (١)

وقال الفخر الرازي الأشعري في كتابه "الأربعين" في الكلام على النبوّات في ذكر المعجزات العقلية: «...بل أقر الكلّ بأنه لا يمكن أن يزا د في تقرير الدلائل على ما ورد في القرءان»، (٢) بل إن علماء الكلام أنفسهم عابوا علم الكلام

---

(١) "الشفا بتعريف حقوق المصطفى" للقاضي عياض (١٧٢- ١٧٣).

(٢) "ترجيح أساليب القرءان على أساليب اليونان" لابن الوزير اليماني (ص٢٠).

وذمّوه، فهذا أبو المعالي الجويني يقول: «يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام فلو عرفت أن الكلام يبلغ بي إلى ما بلغ ما اشتغلت به (وقال عند موته):لقد خضت البحر الخضمّ وخلّيت أهل الإسلام وعلومهم ودخلت في الذي نهوني عنه والآن إن لم يتداركني ربي برحمته فالويل لابن الجويني وها أنذا أموت على عقيدة أمي، أو قال:على عقيدة عجائز نيسابور».[1]

وقال محمد بن عبد الكريم الشّهرستاني:[2]

لعمري لقد طفت المعاهد كلها وسيّرت طرفي بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعا كف حائر على ذقن أو قارعا سنّ نادم

وقال أبو عبد الله الرّازي:

نهاية إقدام العقول عقال وغاية سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا
فكم رأينا من رجال ودولة فبادوا جميعا مسرعين وزالوا

---

(١) "الصواعق المرسلة" لابن القيم (١/١٦٧- ١٦٨).

(٢) "الصواعق المرسلة" لابن القيم (١/١٦٦).

وكم من جبال قد علت شرفاتها   رجال فزالــوا والجبــال جبــال

لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلا ولا تروي غليلا ورأيت أقرب الطرق طريق القرءان، أقرأ في الإثبات ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥ ﴾ [طه:٥]، ﴿ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾ [فاطر:١٠]، وأقرأ في النفي ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ ﴾ [الشورى:١١] ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا ۝١١٠ ﴾ [طه:١١٠]، ومن جرّب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي». [١]

فالحاصل: أن من أدرك كمال الدين وتقرر عنده حتى أصبح من معتقده الذي لا ينازع فيه فإنه بإذن الله لا يحيد قدر شعرة ولا يميل قيد أنملة عن الالتزام بهذا الدين والسير على المنهج القويم مهما اعترته من عراقيل واستنكفته من عقبات في مسيرته إلى الدار الآخرة فإن كمال الدين يعطيه من القوة والصبر والثبات ما لا يسمح له في أي لحظة من لحظات حياته

---

(١) المرجع نفسه (١/١٦٧).

أن يخرج عن الصراط المستقيم أو أن ينحرف عن النّهج القويم ومن لم يدرك هذه الحقيقة تلوّنت عليه الطرق وضاع في مسيرته فلا يدري أين يسير وإلى أيّ هدف هو يقصد لأن الطريق الموصل إلى الخير قد عمي عليه ونهاية مآله الشقاء والضلال.فعليك يا طالب العلم أن تجعل هذا الأصل بين عينيك وأن تضعه أمام ناظريك فإنه الحجّة الباهرة والبيّنة القاهرة التي تدمغ بها أباطيل المبتدعين وتدفع بها شبه الجاهلين الشانئين، فهو والله أصل عظيم ينفع صاحبه في الحوار والمناظرة مع المبتدعة.

يقول العلامة الشوكاني: «...فإذا كان الله قد أكمل دينه قبل أن يقبض نبيه ﷺ، فما هذا الرأي الذي أحدثه أهله بعد أن أكمل الله دينه؟ إن كان من الدين في اعتقادهم، فهو لم يكمل عندهم إلا برأيهم، وهذا فيه ردّ للقرءان! وإن لم يكن من الدين، فأيّ فائدة في الاشتغال بما ليس من الدّين؟ وهذه حجة قاهرة ودليل عظيم لا يمكن لصاحب الرأي أن يدفعه بدافع أبداً، فاجعل هذه الآية الشريفة أوّل ما تصكّ به

وجوه أهل الرأي وترغم به آنافهم وتدحض به حججهم»[(١)].

هذا آخر ما تيسّر جمعه في هذه الورقات، نصحا للمسلمين وإرشادا لهم، فإن وُفِّقت فمن الله الرّحيم الرحمن وإن أخطأت فمن نفسي والشيطان، فمن وجد خيرا فليدْعُ لصاحبها بالخير والصلاح ومن وجد غير ذلك فلا يبخل عليه بالنصح والدعاء بالفلاح.

وسبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

---

(١) "القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد" (ص٤٤) [ضمن مجموعة الرسائل السلفيّة] للشوكاني.